السَّمكة

ـ ١ ـ

حدَّث أحمدُ بنُ مِسكينٍ الفقيهُ البَغداديُّ ، قال : حصَلَتْ في مدينة (بَلْخ) سنة ثلاثين ومئتين ، وعالِمُها يومئذٍ شيخُ خُراسان أبو عبد الرحمن[1] الزَّاهد صاحبُ المواعظ ، والحِكَم ؛ وهو رجلٌ قلبُه من وراء لسانِه ، ونفسُه من وراء قلبِه ، والفَلكُ الأعلى من وراء نفسِه ، كأنَّه يُلَقَّى عليه فيما زعموا .

وكان يقال له عندهم : (لُقمانُ هذه الأمَّة) ؛ لِمَا يُعجبهم من حِكَمِه في الزُّهد ، والموعظة ، وقد حَضَرْتُ مجالسَه ، وحفظتُ من كلامه شيئاً كثيراً ، كقوله : مَن دخل في مذهبنا هذا (يعني الطَّريق) فليجعلْ على نفسه أربعَ خصالٍ من الموت : موتٌ أبيض ، وموتٌ أسود ، وموتٌ أحمر ، وموتٌ أخضر ؛ فالموتُ الأبيضُ : الجوع ، والموتُ الأسودُ : احتمال الأذى ، والموتُ الأحمر : مخالفةُ النَّفس ، والموتُ الأخضرُ : طرحُ الرِّقاع بعضِها على بعض (يعني لبس المرقعة والخَلَقِ من الثياب) .

وقلت يوماً لصاحبه ، وتلميذه (أبي تراب) وجَارَيْتُه في تأويل هذا الكلام : قد فهمنا وجهَ التَّسمية في الموت الأخضرِ ما دامت المرقَّعةُ خضراء ؛ فما الوجهُ في الأبيض ، والأسود ، والأحمر ؟ فجاء بقولٍ لم أرضَه ، وليس معه دليلٌ ، ثُمَّ قال : فما عندك أنت ؟ قلت : أمَّا الجوعُ ، فيُميت النَّفسَ عن شهواتها ، ويتركُها بيضاءَ نقيَّة ، فذلك الموت الأبيض ؛ وأمَّا احتمالُ الأذى ؛ فهو احتمالُ سواد الوجه عند النَّاس ، فهو الموتُ الأسود ؛ وأمَّا مخالفةُ النَّفس ؛ فهي كإضرام النَّار فيها ، فذاك الموتُ الأحمر .

قال أحمد بن مسكين : وكنتُ ذاتَ نهارٍ في مسجد (بلْخ) والنَّاسُ مُتوافِرون ينتظرون (لقمانَ الأمَّة) ليسمعوه ، وشغَلَه بعضُ الأمر ، فراثَ عليهم[2] ،

---

(١) هو حاتم بن يوسف ، شيخ خراسان ، وواعظها ، توفي سنة (٢٣٧) للهجرة . (ع) .

(٢) « راث عليهم » : راث عليه : أبطأ ، فهو : رائث .

فقالوا : مَن يَعِظنا إلى أن يجيءَ الشَّيخ ؟ فالتفت إليَّ أبو تراب ، وقال : أنت رأيتَ الإمام أحمدَ بنَ حَنْبل ، ورأيتَ بِشْراً الحافي ، وفلاناً ، وفلاناً ، فقم فحدِّث النَّاسَ عنهم ، فإنَّما هؤلاء وأمثالُهم هم بقايا النُّبوَّة . ثُمَّ أخذ بيدي إلى الأسطوانة التي يجلسُ إليها إمامُ خراسان ، فأجلسني ثَمَّة ، وقعد بين يديَّ .

وتطاولَت الأعناق، ورماني النَّاسُ بأبصارهم، وقالوا : البَغْداديُّ ! البغداديُّ ! وكأنَّما ضُوعِفَتُ عندهم بمجلسي مرَّةً ، وبِنسْبتي مرَّةً أخرى ، فقلت في نفسي : والله ما في الموت الأحمر ، ولا الأخضر ، ولا الأسود موعظة ، ولو لَبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ ؛ لأفسد شِعْرُ هذه الألوانِ معناه ، وإنَّما يجبُ أن يكونَ كما يجب أن يكون ؛ ولا موعظةَ في كلامٍ لم يمتلئ من نفسٍ قائله ؛ ليكونَ عملاً ، فيتحوَّلَ في النفسِ الأخرى عملاً ، ولا يبقى كلاماً ؛ وإنَّه ليس الوعظُ تأليفَ القول للسَّامع يَسمعُه ، لكنَّه تأليفُ النَّفس لنفسٍ أخرى تراها في كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنَّه قَرابةٌ بين النَّفسين ، حتَّى لكأنَّ الدمَ المتجاذِبَ يجري فيه ، ويدورُ في ألفاظه .

* * *

وكنتُ رأيتُ رؤيا (ببلخ) تتَّصل بقصَّةٍ قديمةٍ في بغداد ، فقصَصْتُها عليهم ، فكانت القصَّةُ كما حكيتُها : أنِّي امتُحِنْتُ بالفقر في سنة تسعَ عشرةَ ومئتين ، وانحَسَمَتْ مادَّتي ، وقَحِطَ منزلي قَحطاً شديداً ، جمع عليَّ الحاجة ، والضُّرَّ ، والمسكنَة ؛ فلو انكمشتِ الصَّحراءُ المجدبةُ ، فصَغُرتْ ، ثُمَّ صغُرت حتَّى ترجعَ أذرُعاً في أذرعٍ ؛ لكانت هي داري يومئذٍ في محلَّة باب البَصرةِ من بغداد .

وجاء يومٌ صَحْراوِيٌّ كأنَّما طلعت شمسُه من بينِ الرَّملِ ، لا من بينِ السُّحُبِ ، ومرَّت الشَّمسُ على داري في بغداد مرورَها على الورقة الجافَّةِ المعلَّقة في الشَّجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شيءٌ يُسيغُه حَلْقُ آدميٍّ ؛ إذ لم يكن في الدَّار إلا ترابُها ، وحجارتُها ، وأجذاعُها ؛ ولي امرأة ، ولي منها طفلٌ صغيرٌ ، وقد طَوَينا على جوع يَخْسِفُ بالجوف خَسفاً ، كما تَهْبطُ الأرض ؛ فلَتَمَنَّيْتُ حينئذٍ : لو كنَّا جُرْذاناً فنَقْرضَ الخشب ! وكان جوعُ الصَّبيِّ يزيدُ المرأةَ ألماً إلى جوعها ، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطونٍ خاويةٍ .

فقلت في نفسي : إذا لم نأكلِ الخشبَ ، والحجارة فلنأكلْ بثمنها . وجمعتُ نيَّتي على بيع الدَّار ، والتحوُّلِ عنها ، وإن كان خروجي منها كالخروج من جِلدي :

لا يسمَّى إلا سلخاً ، وموتاً ؛ وبتُّ ليلتي وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ ، فما يتقلَّب إلا على جراحٍ تعملُ فيه عملَ السُّيوف ، والأسنَّةِ الَّتي عملتْ فيها .

ثُمَّ خرجتُ بغَلَسٍ لصلاة الصُّبح ؛ والمسجدُ يكون في الأرض ، ولكنَّ السَّماءَ تكون فيه ، فرأيتُني عند نفسي كأنِّي خرجتُ من الأرض ساعةً . ولمَّا قُضِيَتْ الصَّلاةُ ؛ رفع النَّاسُ أكفَّهم يدعون الله تعالى ، وجرى لساني بهذا الدُّعاء : « اللهمَّ بك أعوذ أن يكون فقري في دِيني ، أسألك النَّفعَ الذي يُصلِحُني بطاعتك ، وأسألك بركةَ الرِّضا بقضائك ، وأسألك القوَّةَ على الطَّاعة ، والرِّضا يا أرحمَ الرَّاحمين ! » .

ثُمَّ جلستُ أتأمَّلُ شأني ، وأطلتُ الجلوسَ في المسجد ، كأنِّي لم أعُدْ من أهل الزَّمن ، فلا تجري عليَّ أحكامه ، حتَّى إذا ارتفعَ الضُّحَى ، وابيضَّت الشَّمسُ ؛ جاءت حقيقةُ الحياة ، فخرجتُ أتسبَّبُ لبيع الدَّار ، وانبعثْتُ وما أدري أين أذهب ؟ فما سرتُ غيرَ بعيدٍ حتَّى لقيني (أبو نصر الصَّياد) وكنتُ أعرفه قديماً ، فقلت : يا أبا نصر ! أنا على بيع الدَّار ؛ فقد ساءت الحالُ ، وأحْوجَت الخَصاصة ، فأقرِضني شيئاً يُمسِكُني على يومي هذا بالقِوامِ من العيش حتَّى أبيعَ الدَّار ، وأوَفِّيك .

فقال : يا سيدي ! خذ هذا المِنديلَ إلى عيالك ، وأنا على أثَرِك لاحِقٌ بك إلى المنزل . ثُمَّ ناولَني منديلاً فيه رُقاقتان بينهما حلوى ، وقال : إنَّهما والله بركةُ الشَّيخ .

قلت : من الشيخُ ، وما القصَّة ؟

قال : وقفتُ أمسِ على باب هذا المسجد ، وقد انصرف النَّاس من صلاة الجمعة ، فمرَّ بي أبو نصر بِشْرٌ الحافي[1] ، فقال : مالي أراك في هذا الوقت ؟ قلت : ما في البيت دقيقٌ ، ولا خبزٌ ، ولا درهمٌ ، ولا شيءٌ يباع ! فقال : اللهُ المستعان ؛ احمل شبكتَك ، وتعالَ إلى الخَندق ؛ فحملتُها ، وذهبتُ معه ، فلما انتهينا إلى الخندق قال لي : توضَّأ وصلِّ ركعتين . ففعلت ، فقال : سَمِّ اللهَ تعالى ، وألقِ الشَّبكة . فسمَّيت ، وألقيتها ، فوقع فيها شيءٌ ثقيل ، فجعلتُ أجرُّه فشَقَّ عَلَيَّ ، فقلت له : ساعدني ، فإنِّي أخاف أن تنقطعَ الشَّبكة ، فجاء ، وجرَّها

---

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بـ« الحافي » . توفي سنة (٣٢٧) للهجرة ، وكان واحد الدنيا في ورعه ، وتقواه . وقيل له : (الحافي) لأنه كان في حداثته يمشي إلى طلب العلم حافياً ؛ إجلالاً لحديث النبي ﷺ . (ع) .

معي ، فخرجت سمكةٌ عظيمةٌ لم أر مثلَها سِمَناً ، وعِظَماً ، وفَراهةً . فقال : خذها ، وبعها ، واشتر بثمنها ما يُصلح عيالَك . فحملتها ، فاستقبلني رجلٌ اشتراها ، فابتعتُ لأهلي ما يحتاجون إليه ، فلمَّا أكلتُ ، وأكلوا ذكرتُ الشَّيخ ، فقلت أهدي له شيئاً ، فأخذتُ هاتين الرُّقاقتين ، وجعلتُ بينهما هذه الحلوى ، وأتيتُ إليه ، فطرقتُ الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح ، وضَعْ ما معك في الدِّهليز[1] ، وادخلْ . فدخلتُ وحدَّثته بما صنعت ، فقال : الحمد لله على ذلك ! فقلت : إنِّي هيَّأتُ للبيت شيئاً ، وقد أكلوا ، وأكلتُ ، ومعي رُقاقتان فيهما حلوى .

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجت السَّمكة ! اذهبْ كُلْه أنت ، وعيالُك .

* * *

قال أحمد بن مِسكينٍ : وكنتُ من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيفاً لحسبتُه مائدةً أنزلت من السَّماء ، ولكنَّ كلمةَ الشَّيخ عن السَّمكة أشبعتني بمعانيها شِبَعاً ليس في هذه الدُّنيا ، كأنَّما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثمار الجنَّة ؛ وطَفِقْتُ أردِّدها لنفسي ، وأتأمَّلُ ما تَفْتُقُ الشَّهواتُ على النَّاس ، فأيقنتُ أنَّ البلاءَ إنَّما يصيبنا من أننا نفسرُ الدُّنيا على طولها وعرضها بكلماتٍ معدودةٍ ، فإذا استقرَّ في أنفسنا لفظٌ من ألفاظ هذه الشَّهوات ؛ استقرَّت به في النَّفس كلُّ معانيه من المعاصي والذُّنوب ، وأخذتْ شياطينُ هذه المعاني تَحومُ على قلوبنا ، فنُصبح مُهَيَّئين لهذه الشَّياطين ، عاملينَ لها ، ثُمَّ عاملين معها ، فتُدْخِلُنا مَدَاخِلَ السُّوء في هذه الحياة ، وتُقْحِمُنا في الوَرْطَةِ بعد الورطة ، وفي الهَلكَة بعد الهَلكَة .

وما هذه الشَّياطينُ إلا كالذُّباب، والبعوضِ، والهوَامِّ، لا تحومُ إلا على رائحةٍ تجذبها ، فإن لم تجد في النَّفس ما تجتمعُ عليه ، تفرَّقتْ ، ولم تجتمع ، وإذا ألمَّت الواحدةُ منها بعد الواحدة ؛ لم تثبتْ . فلو أنَّنا طردنا من أنفسنا الكلماتِ التي أفسدت علينا رؤيةَ الدُّنيا ، كما خُلِقَتْ ؛ لكان للدُّنيا في أنفسنا شكلٌ آخرُ أحسنُ ، وأجملُ من شكلها ، ولكانت لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ ، وأطهرُ من أعمالنا .

---

(١) « الدهليز » : كلمة فارسية معربة ، ومعناها : المدخل بين الباب والدَّار .

فالشَّيخ لم يكن في نفسه معنًى لكلمة (التلذُّذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللَّفظَ الواحد ، طَرَد معانيَ الشَّرِّ كلِّها ، وصَلحَ له دينُه ، وخَلصَتْ نفسُه للخير ومعاني الخير . ولو أنَّ رجلاً وضع في نفسه امرأةً يَعْشَقُها ؛ لصارت الدُّنيا كلُّها في نفسه كالمخْدَع ، ما فيهِ إلا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليه ، وأسبابِه إليها .

وقد كنتُ سمعتُ في درس شيخنا أحمدَ بنِ حنبل هذا الحديث : « لولا أنَّ الشَّياطينَ يَحومون على قلوب بني آدمَ ؛ لنظَروا إلى مَلكُوت السَّموات » . فما فهمتُ والله معناه إلا من كلمة الشَّيخ في السَّمكة ، وقد علَّمنيها هذا الصَّيَّاد العاميُّ ؛ فالشَّياطينُ تنجذبُ إلى المعاني ، والمعاني يُوجدُها اللَّفظُ المستقرُّ في القلب استقرارَ غرَضٍ ، أو شهوةٍ ، أو طمعٍ ؛ فإذا خلا القلبُ من هذه المعاني ؛ فقد أمِنَ مُنازَعتَها له ، وشَغْلَها إيَّاه ، فيصبحُ فوقها ، لا بينَها ؛ ومتى صار القلبُ فوق الشَّهوات، ولم يجد من ألفاظها ما يُعْمِيه ويعترضُ نظرَه إلى الحقائق، انكشفتْ له هذه الحقائقُ، فانكشف له المَلَكُوت ، فإذا وقع بعدُ في واحدةٍ من اللَّذات ولو (كالرُّقاقتين ، والحَلوى) ، استَغْلَتِ الأشياءُ عليه ، فحجبَتْه ، وعاد بينَها ، أو تحتَها ، وعَمِيَ عَمَى اللَّذة ؛ والحِجابُ على البصر كأنَّه تعليقُ العَمَى على البصر .

وكنتُ لا أزالُ أعجبُ من صبر شيخِنا أحمد بن حنبل ، وقد ضُرِبَ بين يدي المعتصِم بالسِّياط حتَّى غُشِي عليه[١] فلم يتحوَّلْ عن رأيه ؛ فعلمتُ الآن من كلمة السَّمكة : أنَّه لم يجعلْ في نفسه للضَّرب معنَى الضَّرب ، ولا عرف للصَّبر معنى الصَّبر الآدميِّ ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صبْرَ الإنسان ؛ لَجزِعَ ، وتحوَّل ، لو ضُرِب ضربَ الإنسان لتألَّم وتغيَّر ؛ ولكنه وَضَعَ في نفسه معنَى ثباتِ السُّنَّة وبقاءِ الدِّين ، وأنَّه هو الأمَّةُ كلُّها لا أحمدُ بن حنبل ، فلو تحوَّل ؛ لتحوَّل النَّاسُ ، ولو ابتَدَع ؛ لابتدَعُوا ؛ فكان صبرُه صبرَ أُمَّةٍ كاملةٍ ، لا صبرَ رجلٍ فَرد ، وكان يُضرَب بالسِّياط ، ونفسُه فوقَ معنى الضَّرب ، فلو قَرَضُوه[٢] بالمَقَاريض[٣] ، ونشروه بالمَنَاشِير ؛ لما

(١) كان هذا في سنة (٢١٩هـ) وقد أرادوا الإمامَ العظيمَ على القول بخلق القرآن ، فلم يقلْ به ، فأفتى القاضي ابن أبي دؤاد بقتله ، وشغب عليه . ثم ضُرب بين يدي المعتصم ، فلما صمَّم ، ولم يُجِبْ ؛ أطلقه المعتصم ، وندم على ضربه . (ع) .

(٢) « قرضوه » : قطعوه .

(٣) « المقاريض » : جمع مِقْراض ، وهو : المقص .

نالوا منه شيئاً ؛ إذ لم يكن جسمُه إلا ثوباً عليه ، وكان الرَّجلُ هو الفكرَ ليس غَيْر .

هؤلاء قومٌ لا يَرَوْن فضائلَهم فضائلَ ، ولكنَّهم يَروْنها أماناتٍ قد ائتُمِنُوا عليها من الله ؛ لتبقَى بهم معانيها في هذه الدُّنيا ؛ فهم يُزْرَعون في الأمم زَرعاً بيَدِ الله ، ولا يملكُ الزَّرعُ غيرَ طبيعته ، وما كان المعتصمُ وهو يريد شيخَنا على غير رأيه ، وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التُّفاح : أثْمِري غيرَ التُّفاح .

* * *

قال أحمدُ بن مِسكين : وأخذتُ الرُّقاقتين وأنا أقولُ في نفسي : لعن الله هذه الدُّنيا ! إنَّ من هَوانِها على الله : أنَّ الإنسانَ فيها يَلْبَس وجهه ، كما يَلبَسُ نعلَه . فلو أنَّ إنساناً كانت له نظرةٌ ملائكيَّةٌ ، ثمَّ اعترضَ الخلقَ ينظُر في وجوههم ؛ لرأى عليها وُحُولاً ، وأقذاراً كالَّتي في نعالِهم ، أو أقذرَ ، أو أقبح ، ولعلَّه كان لا يَرى أجملَ الوجوه ؛ التي تَستَهيمُ النَّاسَ ، وتَتَصَبَّاها من الرِّجال والنِّساء إلا كالأحذية العتيقة .

ولكنِّي أحسستُ أنَّ هاتين الرُّقاقتين سرَّ الشَّيخ ، ورأيتُهما في يدي كالوثيقتين بخيرٍ كثيرٍ ؛ فقلت : على بَركة الله ! ومضيتُ إلى داري ؛ فلمَّا كنتُ في الطَّريق لقيتْني امرأةٌ معها صبيٌّ ، فنظرتْ إلى المنديل ، وقالت : يا سيدي ! هذا طفلٌ يتيم جائع ، ولا صبرَ له على الجوع ، فأطعِمْه شيئاً يرحمك الله ! ونظر إليَّ الطفلُ نظرةً لا أنساها ؛ حسبتُ فيها خُشوعَ ألف عابدٍ يعبدون اللهَ (تعالى) مُنْقَطِعين عن الدُّنيا ؛ بل ما أظنُّ ألفَ عابدٍ يستطيعون أن يُرُوا النَّاسَ نظرةً واحدةً كالَّتي تكون في عينِ صبيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرَّحمة . إنَّ شدَّة الهمِّ لتجعلُ وجوهَ الأطفال كوجوهِ القِدِّيسين في عينِ من يراها من الآباء ، والأمَّهات ، لِعَجْز هؤلاء الصِّغارِ عن الشَّرِّ الآدميِّ ، وانقطاعِهم إلا من الله ، والقلبِ الإنسانيِّ ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم ، وكأنَّه يَصْرُخُ بمعانيه يقول : يا ربَّاه ! يا رباه !

قال أحمدُ بن مِسكين : وخيِّل إليَّ حينئذ أنَّ الجنةَ نزلتْ إلى الأرض تَعْرِضُ نفسَها على مَنْ يُشْبِعُ هذا الطِّفلَ ، وأمَّه ، والنَّاسُ عُمْيٌ لا يُبصرونها ، وكأنهم يمرُّون بها في هذا الموطِن مرورَ الحميرِ بقصرِ الملكِ : لو سُئِلتْ ؛ فَضَّلتْ عليه الإصْطَبلَ ؛ الَّذي هي فيه .

وذكرتُ امرأتي ، وابنَها ، وهما جائعان مُذْ أمس ، غيرَ أنّي لم أجدْ لهما في قلبي معنى الزَّوجة والولد ، بل معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلِها ، فأسقطتُهما عن قلبي ، ودفعتُ ما في يدي للمرأة ، وقلت لها : خذي ، وأطعمي ابنَك ، وواللهِ ما أملك بيضاء ، ولا صفراء ، وإنَّ في داري لَمن هو أحوجُ إلى هذا الطَّعام ؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بي ؛ لتقدَّمتُ فيما يُصْلِحُك . فدَمَعَتْ عيناها ، وأشرق وَجهُ الصَّبيِّ ، ولكنْ طَمَّ على قلبي ما أنا فيه ، فلم أجد للدَّمعة معنى الدَّمعة ، ولا للبَسْمة معنى البسمة .

وقلت في نفسي : أمَّا أنا ؛ فأطوِي إن لم أصِبْ طعاماً ، وكان فلانٌ ، وفلانٌ ممَّن حفظنا أسماءهم ، وروينا أخبارهم ؛ ولكن مَن للمرأة وابنها بمثلِ عَقْدِي ، ونيَّتي ؟ وكيف لي بهما ؟

ومشيتُ ، وأنا مُنْكَسِرٌ منقبِض ، وكأنّي كنتُ نسيتُ كلمةَ الشَّيخ : « لو أطْعَمْنا أنفسَنا هذا ؛ ما خرجت السَّمكة » . فذكرتُها ، وصرفتُ خاطري إليها ، وشَغَلتُ نفسي بتدبُّرها ، وقلتُ : لو أنّي أشبعتُ ثلاثةً بجوع اثنين ؛ لحُرِمْتُ خمسَ فضائل[1] وهذه الدُّنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل ، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنَعت .

وكانت الشَّمسُ قد انبسطَتْ في السماء ، وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى ، فملتُ ناحيةً ، وجلستُ إلى حائطٍ أفكِّر في بيع الدَّار ، ومن يبتاعها ، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصَّياد ، وكأنه مُسْتَطَارٌ فَرحاً ، فقال : يا أبا محمد ! ما يُجلِسُكَ ها هنا وفي دارك الخيرُ ، والغنى ؟ قلت : سبحانَ الله ! من أين خرجت السَّمكةُ يا أبا نصر ؟!

قال : إنّي لَفي الطَّريق إلى منزلك ، ومعي ضَرُورةٌ من القُوتِ أخذتُها لعيالك ، ودَرَاهمُ استَدَنتُها لك ؛ إذ رجلٌ يَسْتَدِلُّ النَّاسَ على أبيك ، أو أحدٍ من أهله ، ومعه أثقالٌ ، وأحمال ، فقلت له : أنا أدلُّك . ومشيتُ معه أسأله عن خبرَه ، وشأنِه عند أبيك . فقال : إنَّه تاجرٌ من البَصْرة ، وقد كان أبوك أوْدعه مالاً من ثلاثين سنةً ،

(١) يريد : جوعه ، وجوع امرأته ، وجوع ابنه ؛ ثم شبع هذه المرأة ، وشبع ابنها . فهذه خمس فضائل . (ع) .

فأفلس ، وانكسرَ المال ، ثُمَّ ترك البصرةَ إلى خُراسانَ ، فصلح أمرُه على التِّجارة هناك ، وأيْسرَ بعد المِحْنَة ، واستَظْهَرَ بعدَ الخِذْلان ، وأقبلَ جَدُّه بالثَّرَاء ، والغِنَى ؛ فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلَّلَ ، فجاءك بالمال ، وعليه ما كان يربحُه في هذه الثلاثين سنةً ، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا .

* * *

قال أحمدُ بن مسكين : وأنقلِبُ إلى داري ، فإذا مالٌ جَمٌّ ، وحالٌ جميلةٌ ! فقلت : صدق الشَّيخ : « لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السَّمكة . » ! فلو أنَّ هذا الرَّجلَ لم يلقَ في وجهه أبا نصر في هذا الطَّريق ، في هذا اليوم ، في هذه السَّاعةِ ، لما اهتدى إليَّ ؛ فقد كان أبي مغموراً لا يعرفُه أحدٌ ، وهو حيٌّ ؛ فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنة ؟

وآلَيْتُ لَيعلمنَّ اللهُ شكري هذه النِّعمة ؛ فلم تكن لي همَّةٌ إلا البحثَ عن المرأة المحتاجة ، وابنِها ، فكفيتهما ، وأجريتُ عليهما رِزقاً ، ثم اتَّجَرْتُ في المال ، وجعلتُ أَرُبُّه[1] بالمعروف ، والصَّنيعةِ ، والإحسان ، وهو مُقْبِلٌ يزداد ، ولا ينقُص ، حتَّى تموَّلْتُ ، وتأثَّلت .

وَكأني قد أعجبتني نفسي ، وسرَّني أنِّي قد ملأتُ سِجلاتِ الملائكة بحَسناتي ، ورجوتُ أن أكونَ قد كُتِبتُ عند الله في الصَّالحين ، فنمتُ ليلةً فرأيتُني في يوم القيامة ، والخَلْقُ يموجُ بعضُهم في بعض ، والهولُ هولُ الكون الأعظم على الإنسان الضَّعيف ، يُسْألُ عن كلِّ ما مسَّه من هذا الكون . وسمعتُ الصَّائحَ يقول : يا معشرَ بني آدم ! سَجَدَت البهائمُ شكراً لله : أنَّه لم يجعلها من آدم . ورأيتُ الناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم ، فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورهم مخلوقةً مجسَّمة ، حتَّى لكأنَّ الفاسقَ على ظهره مدينةٌ كلُّها مُخزياتٌ !

وقيل : وُضعَت الموازينُ ، وجيءَ بي لوزن أعمالي ، فَجُعِلتْ سيئاتي في كِفَّة ، وألقيتْ سجلاتُ حسناتي في الأخرى ، فطاشَت السِّجلات ورجَحَت السَّيئات ، كأنَّما وزنوا الجبلَ الصَّخريّ العظيم الضَّخمَ بلُفافةٍ من القطن .

ثمَّ جعلوا يُلْقون الحسنةَ بعد الحسنةِ ممَّا كنت أصنعهُ ، فإذا تحت كلِّ حسنةٍ

---

(١) « أربه » : رَبَّ النعمة : حَفِظَها ، ونَمَّاها . وربَّ الأمرَ : أصلحه .

شهوةٌ خفيَّةٌ من شهوات النَّفس : كالرِّياء ، والغُرور ، وحبِّ الْمَحْمَدَة عند النَّاس ، وغيرها ، فلم يَسْلمْ لي شيء ، وهلكتْ عني حُجَّتي ؛ إذ الحجةُ ما يُبَيِّنُه الميزان ، والميزانُ لم يدلَّ إلا على أنِّي فارغ .

وسمعتُ الصَّوتَ : ألم يبق له شيء ؟ فقيل : بَقِي هذا .

وأنظر لأرى ما هذا الذي بقي ، فإذا الرُّقاقتان اللَّتان أحسنتُ بهما على المرأة وابنِها ! فأيقنتُ أنِّي هالك ؛ فلقد كنت أُحْسِنُ بمئة دينارٍ ضَرْبةً واحدةً فما أغنت عنِّي ، ورأيتُها في الميزان مع غيرها شيئاً معلَّقاً ، كالغَمام حين يكون ساقِطاً بين السَّماء ، والأرض : لا هُو في هذه ، ولا هو في تلك .

ووُضعَت الرُّقاقتان ، وسمعتُ القائل : لقد طار نصفُ ثوابهما في ميزان أبي نصر الصَّياد . فانخذَلْتُ انخذالاً شديداً ، حتَّىٰ لو كُسِرْتُ نصفين ؛ لكان أخفَّ عليَّ وأهون . بَيْدَ أني نظرتُ فرأيت كِفَّة الحسناتِ قد نزلتْ منزِلةً ، ورَجَحَت بعضَ الرُّجحان .

وسمعتُ الصَّوت : ألم يبقَ له شيء ؟ فقيل : بَقِيَ هذا .

وأنظر ما هذا الذي بقي ، فإذا جوعُ امرأتي ، وولَدي في ذلك اليوم ! وإذا هو شيء يُوضَع في الميزان ، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ، ويرتفع بالأخرى حتَّى اعتدلَتَا بالسَّوِيَّة . وثَبَتَ الميزانُ على ذلك فكنتُ بين الهلاك ، والنَّجاة .

وأسمعُ الصَّوت : ألم يبق له شيء؟ فقيل : بقي هذا .

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حين بكتْ من أثَرِ المعروفِ في نفسها ، ومن إيثاري إيَّاها ، وابنَها على أهلي . ووُضِعَتْ غَرْغَرَةُ عينيها في الميزان ، فَفارَتْ ، فطمَّتْ كأنَّها لُجَّةٌ ، مِن تحتِ اللُّجَّةِ بحرٌ ؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد وقَع في نفسي أنَّها رُوح تلك الدُّموع ، فجعلتْ تعظُم ولا تزال تعظم ، والكفَّةُ ترجَحُ ، ولا تزال ترجح ، حتَّى سمعتُ الصَّوت يقول : قد نجا !

وصحتُ صيحةً انتبهتُ لها ، فإذا أنا أقول : « لو أطعمنا أنفسَنا هذا ؛ ما خرجت السَّمكة ! » .

* * *